النثر العربي في نصف قرن

الرأي الشائع بين المحافظين من اهل الادب العربي واصحاب العلم به ان النثر ايسر من الشعر وان اصطناعهُ شيء سهل لا يكلف صاحبهُ عناء ولا مشقة ، وهم من هذه الناحية يقدمون الشعر على النثر ولهم في ذلك مباحث طوال وكلام كثير تستطيع ان تلمح به اذا نظرت في كتاب العمدة لابن رشيق وما يشبههُ من الكتب . وما اظن ان رأي الادباء تغيَّر في هذا الموضوع فهم ما يزالون يعتقدون ان الشعر اعسر من النثر وابعد منهُ متناولاً ، ثم ما يزالون يعتقدون ان النثر اقدم من الشعر وجوداً ، وهم معذورون فظواهر الاشياء كلها توهم ذلك وتحمل على الجزم به . فالنثر مطلق لا قيد فيهِ والشعر مقيد بالوزن والقافية والنثر مشبه في اطلاقهِ لكلام الناس في حياتهم اليومية وحوارهم المألوف. واذن فالناس يتكلمون نثراً وهم يتكلمون قبل ان يشعروا وهم لا يجدون مشقة في الكلام وهم يجدون في نظم الشعر مشقة وعناء واذن فالنثر اقدم من الشعر وايسر وادنى منالاً . ومن هنا يقسم مؤرخو الآداب العربية كلام العرب الى منظوم ومنثور ومسجوع ، وهم يرون ان النثر كان في العصور القديمة أكثر من الشعر ولكن ما حفظ من قديم الشعر اكثر جداً مما حفظ من قديم النثر ، وتعليل هذه الظاهرة لاعسر فيهِ فالشعر اشد عسراً من النثر في الانشاء ولكن الشعر ادنى الى الحافظة واسلس لها قياداً من النثر ، اليست القيود التي تأتيهِ من العروض والقافية تقربهُ من الحافظة وتجعل في استظهاره لذة وراحة لا نجدهما في استظهار النثر ؟ فاذا كان ما رويهِ من نثر العرب قبل الاسلام قليلاً فليس ذلك لانهم لم ينثروا بل هو لانهم لم يكونوا يكتبون ولان حافظتهم لم تكن تطاوعهم الى حفظ النثر واستظهاره فضاع نثر العرب الجاهليين الا اقله و بقي شعر العرب الجاهليين الا اقله

كذلك كان يقول القدماء وكذلك ما يزال يقول المحدثون . ولكن شيئاً من التفكير والنظر في آداب الامم المختلفة يضطرنا الى ان نعدل عن هذا الرأي القديم ، فمن العجيب ان تتفق الامم كلها على ان تحفظ من شعرها القديم اكثر مما تحفظ من نثرها في عصورها الاولى ، ومن العجيب ايضاً ان تتفق الامم كلها في ضعف الذاكرة عن النثر وقوتها على الشعر . ومن العجيب بعد هذا وذاك الاَّ تضعف ذاكرة هذه الامم الاَّ عن النثر القديم ، فاما النثر الذي يظهر بعد ان تبلغ الامة من الرقي العقلي والمدني طوراً ما فان ذاكرتها

تقوى عليهِ وتنهض باستظهارهِ كما تقوى على الشعر وتستظهرهُ . الحق ان الامم اذا لم تر شيئاً من نثرها القديم فليس لذلك سبب الاَّ انها لم يكن لها نثر في اطوار حياتها الادبية الاولى واذا روت كثيراً من شعرها القديم فلانها كان لها شعر في اطوار حياتها الاولى هذه اي ان الشعر اسبق الى الوجود من النثر وانهُ ايسر منهُ وادنى منالاً . وانت اذا نظرت في تاريخ الامم القديمة والحديثة واذا نظرت في حياة الامم التي لم تكد تنحضر بعد فستراها انها كلها تسبق الى الشعر ولا تهتدي الى النثر ولا تظفر بهِ الاَّ بعد زمن طويل وجد غير قليل ورقي في الحضارة وتقدم في الحياة العقلية لا بأس بهما ، تجد ذلك عند اليونان وتجدهُ عند الرومان وتجدهُ عند العرب وتجدهُ عند الامم الاوربية الحديثة

وحيثما وجهت في القبائل التي لم تستقر بعد فستراها كلاماً منظوماً لهُ اوزانهُ وقوافيهِ دون ان تجد لها هذا النثر الذي يظن رجال الادب انهُ اقرب من الشعر منالاً . ذلك ان النثر ليس اقرب من الشعر منالاً في حقيقة الامر ولعل حظهُ من العسر ليس اقل من حظ الشعر ان لم يكن اكثر منهُ . فالنثر لغة العقل والشعر لغة الخيال ، والخيال اسبق الى النمو في حياة الافراد والجماعات من العقل ، خيال الصبي والشاب اقوى من عقلهِ وخيال الجماعات غير المتحضرة اقوى من عقلها فليس عجيباً ان يتكلم الخيال قبل ان يتكلم العقل وليس عجيباً ان يوجد الشعر قبل ان يوجد النثر وليس عجيباً ان يكون الشعر ايسر تعاطياً وادنى تناولاً من النثر . فالخيال ، إنْ يتقيَّد بالوزن والقافية حين يتكلم فهو لا يتقيد بشيء آخر . هو حر طلق يمضي حيث يشاء ويصور الاشياء كما يشاء لا كما تشاء الاشياء او لا كما تشاء الطبيعة ، اما العقل فقد يطلق نفسهُ من قيود الوزن والقافية ولكن ما اثقل القيود والاغلال التي تأخذهُ وتعوقهُ عن الحركة ولا تأذن لهُ بالتقدم الاَّ في بطء واناة ، هو لا يطير ولا يحسن ان يطير وهو لا يعدو ولا يستطيع ان يعدو فاذا حاول الطيران او العدو فليس هو العقل الخالص وانما هو العقل قد غلب عليهِ الخيال ، هو لا يطير ولا يعدو ولكنهُ يسعى في هدوء ، وهو لا يصور الاشياء كما يشاء ولكنهُ يقبل صورها كما هي ، هو مقيد والخيال مطلق وهو بطيء والخيال سريع ، فليس عجيباً ان يتأخر نموّه عن نموّ الخيال وليس عجيباً ان يكون انتاجهُ اعسر واقل من انتاج الخيال وليس عجيباً آخر الامر ان يكون النثر الذي هو لغة العقل احدث وجوداً من الشعر الذي هو لغة الخيال

ولكن مالي ولهذا كلهِ واين انا من الموضوع الذي اريد ان اكتب فيهِ وهو النثر العربي في هذا العصر الذي نحن فيهِ ؟ وما هذه المقدمات الطويلة ؟

ليس القارىء يحسّ اني اطيل عليه واثقل في غير نفع ولا جدوى ؟ بلى ، ولو كنت من اصحاب الخيال لما اطلت ولا اثقلت ولا احتجت الى مقدمات فالخيال كما قلنا خفيف حر يأتي حيث شاء وكيف شاء ولكني اريد ان اكتب نثراً اي اريد ان احمل عقلي على ان يتحدث الى عقل القارىء وقد قلنا ان العقل رزين بطيء لا يطير ولا يعدو ولكنهُ يسعى في اناة فليسعَ القارىء معي في اناة ايضاً ولينتقل معي من كل هذه المقدمات الى حيث اريد ان انتقل به ليلاحظ ان هناك صلة قوية جداً بين الحياة العقلية وحظ النثر من القوة والضعف ، من الرقي والانحطاط ، من البرد والحر والفتور . متى بلغ النثر اليوناني اقصى ما استطاع ان يبلغ من الرقي ؟ في عصر سقراط وافلاطون . ومتى بلغ النثر العربي اقصى ما كان يستطيع ان يبلغ من الرقي ؟ في عصر ابن المقفع والجاحظ واشباههما اي ان رقي النثر كان عند اليونان والعرب رهيناً برقي الحياة العقلية وانبساط سلطان الفلسفة على العقول وهو كذلك عند الرومان وهو كذلك في امم اوروبا الحديثة وهو كذلك في مصر

ان الذين يريدون ان يؤرخوا الآداب العربية في هذا العصر الحديث خليقون الاّ يقطعوا الصلة بين الادب والعلم والا يظنوا ان الحياة الادبية تستطيع ان تستقل استقلالاً تامّاً عن الحياة العقلية بل هم خليقون ان يعتقدوا ان ليست هناك حياة ادبية وحياة عقلية وانما هناك حياة عقلية واحدة تظهر مرّة في شكل ادبي هو النثر الفني وتظهر مرة اخرى في شكل علمي هو هذا النثر الذي نجدهُ في كتب العلم الخالص . اقول ان الذين يدرسون تاريخ الادب في هذا العصر الحديث خليقون ان يقدروا تأثير العلم والفلسفة في هذا الادب وفي النثر بنوع خاص ، فليس يمكن ان يكون من اثر المصادفة وحدها ان تطّرد الصلة بين الرقي العلمي والفلسفي ورقي الآداب عامة والنثر منها بنوع خاص ، وفي الحق انك حين تقرأ هذا النثر الذي كان يكتب في الشرق العربي في اول القرن الماضي لن تشعر بالفساد الفني الادبي وحدهُ ولكنك ستشعر قبل هذا بخلو ما تقرأ من المعنى القيم وباعدام هذه العقول التي يترجم عنها هذا النثر وستشعر بعد هذا بما ينتج عن اعدام هذه العقول وفقرها من الفساد الفني الذي يتصف به النثر العربي في كل العصور التي ضعفت فيها الحياة العقلية الفلسفية

لا يخدعنك ما ترى من هذه الزينة اللفظية والبهرج البديعي والبياني من سجع وتكلف في الاستعارة والمجاز وفي التشبيه والكناية والتورية وما اليها فليس هذا كله الاّ تكلف المعدم الباذخ يريد ان يظهر مظهر الغنيّ المثري ، انما مثل هؤلاء الكتاب

الذين يتكلفون الوان البديع والبيان في غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة اعوزها الجمال النظري فهي تتكلف الزينة ، واعوزها سرّ الحلى فهي تخدع الناس ببهرجة زائفة. ومن هنا تستطيع ان تلاحظ ان النتيجة القيمة التي جاء بها القرن الماضي في النثر العربي انما هي اطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية وهو لم يطلقهُ من هذه القيود عبثاً وانما اطلقهُ منها لان منحهُ هذا الروح القوي الذي مكنهُ من ان يستقل بنفسه ويستهوي العقول والالباب قليلاً قليلاً وهذا الروح القيم الذي بث الحياة في النثر العربي والقى عنهُ هذه التآليف البالية التي كانت تثقلهُ وتعوقهُ عن الحركة انما هو المعنى وهذا المعنى انما جاء من الحياة العقلية التي انشطها العلم والفلسفة في القرن الماضي . وليس ادلّ على صدق ما نقول من انك تنظر فترى انطلاق النثر من هذه القيود و براءتهُ من هذه الاغلال لم يأتيا عفواً ولم يتما فجاءة وانما كانا رهينين بوجود الصلة ونموها بين الشرق والغرب اي بين العقل المعدم والعقل الغني . مؤلم جداً هذا الشعور الذي تجدهُ حين تقرأ الجبرتي واشالهُ من الذين كانوا يكتبون في اول هذا العصر الحديث ولكن توسط القرن الماضي واقرأ ما كان يكتب في مصر والشام فستجد شيئاً من اللذة يشوبهُ شيء من الالم كثير ذلك لانك تقرأ كلاماً يدل على شيء ويريد بنوع خاص ان يدل على شيء ولكنهُ لا يكاد يبلغ ما يريد لان حظهُ من المعنى قليل من جهة ولانهُ لم يستطع بعد ان يتخلص من تلك القيود والاغلال من جهة اخرى . ثم صل الى الثلث الاخير من القرن الماضي واقرأ ما كان يكتب في مصر والشام ايضاً فسيعظم حظك من اللذة وستشعر بشيء من الالم ولكنهُ ليس هذا الالم الذي تجدهُ حين تشهد البؤس والاعدام وانما هو نوع آخر من الالم تجدهُ حين تشهد التكلف والتصنع وحين تحس ان هذه المعاني لو اطلقت من قيودها وارسلت على سجيتها لاحدثت في نفسك من البهجة واللذة ما لا تستطيع ان تحدثهُ وهي مثقلة بما يحيط بها من لفائف البديع والبيان . كل هذا يدل على ان النثر العربي قد كان ثقيلاً بغيضاً اول القرن الماضي لانهُ كان قليل الحظ من الحياة العقلية لا اثر فيهِ لشخصية الكاتب ولا لتفكيره او قل لانهُ كان فقراً كلهُ ثم اثرى العقل الشرقي شيئاً فشيئاً فدبت الحياة في النثر بمقدار هذه الثروة العقلية واخذ هذا النثر كلما احس حياتهُ وقوتهُ يجتهد في ان يتخلص نفسهُ من قيود الفقر واغلال البؤس حتى انتهى الى حيث هو الآن من حرية وانطلاق . فالنثر اذن مدين في هذا العصر بحريتهِ وانطلاقهِ ورقيهِ الفني كما كان مديناً في غير هذا العصر بهذه الاشياء كلها للعلم

والفلسفة وما احدثا من تنشيط العقل وردهِ الى اليقظة بعد النوم والى الحركة بعد الجمود. ومن الحق على الكتاب المجيدين ان يعرفوا ما للعلماء والفلاسفة عليهم من فضل وان يقدروا ما للذين نقلوا اليهم العلم والفلسفة عندهم من يد ؛ فلولا المترجمون في العصر العباسي ما عرفت العربية نثر ابن المقفع والجاحظ، ولولا المترجمون في هذا العصر الحديث ما عادت للنثر العربي حياتهُ القوية النشيطة التي نريد ان نتحدث عنها بعض الحديث

اخشى ان اكون مسرفاً بعض الشيء . فان حياة النثر العربي في هذا العصر لم تأت كلها من قبل العلم الحديث والفلسفة الحديثة وانما جاءت من قبلها ومن قبل شيء آخر هو الادب العربي القديم في عصوره الراقية. فقد كان الكتاب واهل العلم في اوائل القرن الماضي يجهلون او يكادون يجهلون قديم العرب وما كان لهم من شعر جيد ونثر رائع، وكان الذين يلمون منهم بهذا الادب القديم لا يكادون يفهمون ما يلوون به على وجهه وكانوا لا يجارون ان يتأثروهُ او يحتذوهُ. اما الآن فقد تغير هذا كلهُ وعرف الادب العربي القديم وعادت الحياة الى الشعر العربي والنثر العربي فنحن نقرأهما ونحفظهما وننقدهما ونتأثرهما ولهذا كلهِ حظ عظيم من التأثير في جودة ما نكتب من نثر وما ننظم من شعر . ولكن ما الذي ردَّ الحياة الى الادب العربي القديم وما الذي ذكَّر كتاب الشرق وشعراءهُ بهذا الادب وما الذي حملهم على قراءتهِ وروايتهِ ونقدهِ واحتذائهِ ؟ انما هو هذا الروح العلمي الذي جاءنا من الغرب ونقلهُ الينا المترجمون . هذا الروح العلمي هو الذي أنشط العقول وحملها على ان تفكر في القديم والحديث وعلى ان تغذو نفسها بهما معاً. واذن فانا لم اسرف ولم اتجاوز الحق حين رأيت اننا مدينون بحياة النثر لهؤلاء المترجمين الذين اوجدوا الصلة بين الشرق النائم والغرب اليقظ . ولقد احب ان اعرف حظ البلاد الشرقية في ايجاد هذه الصلة الخصبة القيمة بين الشرق والغرب فلا اجد في ذلك مشقة ولا عسراً . فالبلاد التي ردَّت الى الشرق حياتهُ العقلية والادبية في هذا العصر هي بعينها البلاد التي احيت الشرق في العصور الاولى حياة قوية مطردة لا عارضة ولا متكلفة. نعم لم يستمد الشرق العربي حياتهُ قديماً من شمال افريقية ولا من جزيرة العرب بل لم يستمدها من العراق وانما استمدَّ حياتهُ الصالحة الخصبة في نظام واطراد من مصر والشام . من هذين القطرين ازهرت الحضارة الشرقية الخاصة ؛ ومن هذين القطرين انبعثت الحضارة الى اطراف الشرق وفي هذين القطرين اثمرت الحضارات الاخرى التي نشأت من غيرهما وسيطرت على الشرق حيناً طويلاً او قصيراً كحضارة اليونان والرومان والعرب،

والى هذين القطرين لجأت الحضارات الشرقية وغير الشرقية حين ضاقت بها البلاد الاخرى فوجدت فيهما ملجأ امينًا ومأوى حصينًا . نعم وفي هذين القطرين نشأت النهضة الشرقية في هذا العصر الاخير . نشأت في مصر ونشأت في الشام اوائل القرن الماضي واستبق القطران فيها استباقًا عظيمًا حتى اصبح من العسير ان نحدد الحظ الذي ظفر به كل منهما في هذه النهضة . فبينما كان امراء مصر من الاسرة العلوية يجدّون في انهاض مصر وتقوية الصلة بينها وبين الغرب وارسال الوفود العلمية الى اوربا واستقدام العلماء الاوربيين الى مصر واقامة المعاهد العلمية المختلفة ونقل الكتب في الوان العلوم والفنون كان المسيحيون من اهل الشام يتصلون باوربا اتصالاً قويًّا لاسباب مختلفة منها السياسة ومنها الدين ومنها العلم . وكانت تحدث في بلاد الشام حركة شبيهة جدًّا بهذه الحركة التي كان يستحدثها الامراء في مصر وكانت تنتج عن هاتين الحركتين في مصر والشام نتيجة واحدة هي نشاط العقل الشرقي واستئناف الحركة والحياة . ولكن من الحق ان نلاحظ ان مظهر النهضة كان في مصر عمليًّا عمليًّا او اقرب الى العلم والعمل منهُ الى اي شيء آخر بينما كان مظهر الحركة في الشام اقرب الى الادب واللغة وادنى اليهما منهُ الى اي شيء آخر . فانت تستطيع ان تجد في مصر في اثناء القرن الماضي العلماء الذين تفوقوا في الطب والرياضة والطبيعة ولكنك لا تكاد تظفر فيها باديب يعدل هؤلاء الادباء الذين كثروا في الشام . وانت تستطيع ان تجد في الشام ادباء تفوقوا في الادب واللغة واستحدثوا فيهما الجديد النافع ولكنك لا تجد في الشام مثل من تجد في مصر من العلماء . ومهما يكن من شيء فقد ارادت ظروف الحياة التي احاطت بالقطرين ان يلجأ النشاط السوري في الادب واللغة الى مصر منذ اواخر القرن الماضي وان تكون القاهرة مستقر الحركة العقلية القوية في الشرق كله فانتقل ادباء السوريين وعلماؤهم الى مصر ووجد نشاطهم فيها ما لم يكن يجدهُ في الشام من القوة والتشجيع فآتى ثمرتهُ الباقية الخالدة واصبح النثر العربي الآن اصدق مزاج التأم فيهِ الروحان السوري والمصري التئامًا لا سبيل الى تفريقهِ . ولست اقول هذا الكلام عبثًا ولا اطلقهُ من غير دليل فليس من شك في ان الصحافة صاحبة الحظ الموفور في نشر الادب والعلم وانشاء النثر الحديث ، وانا حين اذكر الصحافة لا اريد بها اليومية دون الاسبوعية او دون الشهرية انما اريد الصحافة كلها والصحافة سورية مهما يكن من شيء . ولعلَّ احدًا لا يستطيع ان يناقش في ان الصحافة المصرية الخالصة حديثة العهد بالوجود وانها على ما بلغت من قوة الايد

وشدة الاثر في هذه الايام لم تستطع ان تسبق الصحافة السورية ولا ان تتفوق عليها . وحسبنا ان نلاحظ ان الصحافة المصرية ان كانت قد بلغت من القوة في هذه الايام حظاً موفوراً فهي بعد لم تستطع ان تتجاوز السياسة وهي ان اثرت في الادب فمن طريق السياسة ومن السعي الى السياسة فاما الصحافة الادبية والعلمية الخالصة التي نتناولها لنقرأ فيها فصلاً من فصول الادب او مبحثاً من مباحث العلم ليس غير فما زالت الى الآن سورية وهي ترحب بضيوفها من المصريين وغير المصريين وتجد في تضييفها ايام حياة وقوة ولكنها على كل حال سورية

والآن وقد المنا باصول هذه النهضة النثرية العربية فهل نستطيع ان نشخصها تشخيصاً صحيحاً وان نصل الى المميزات التي تفرق بين هذا النثر الذي نكتبهُ الآن والنثر الذي كان يكتب منذ خمسين سنة . اعتقد ان ذلك ليس عسيراً فقد كان النثر منذ خمسين سنة كما قلت لك آنفاً متوسطاً بين حالين فيهِ معنى قيم يحدث في نفسك ما تطمح اليهِ من لذة عقلية وفنية ولكنهُ لم يخلص من تلك الاغلال والقيود التي كان يرسف فيها النثر القديم فهو مقيَّد بالسجع متكلف للاستعارة والوان البديع والبيان ولكنهُ لم يكن يتكلف هذه الالوان بحكم الفقر والاعدام وانما كان يتكلفها بحكم العادة . ولم يكن بدٌّ في ذلك الوقت الذي احسَّ العقل الشرقي فيهِ حريتهُ وشخصيتهُ من ان تشبَّ الحرب ضروساً بين المذهبين المختصمين دائماً في النثر : مذهب اصحاب القديم ومذهب اصحاب الجديد . وقد شبت بالفعل هذه الحرب وكان السوريون هم الذين شبّوها لانهم كما رأيت اصحاب الصحافة ولانهم كما رأيت اقرب الى النشاط في الادب منهم الى النشاط في غيره ، وانت تعلم ان الصحفي مضطر بحكم ساعتهِ وما تستتبعهُ من العجلة والتحدث الى الجمهور الى ان يتحلل من هذه القيود البديعية ويتخلص من هذه الاغلال الفنية . وكذلك فعل الصحفيون من السوريين وكذلك فعل الصحفيون المصريون ايضاً واستطاع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان ان يكتبوا فصولاً لا تخلو من آثار القديم فيها السجع وفيها تكلف البديع والبيان ولكنها بعيدة كل البعد عما كان يكتب في اوائل القرن الماضي وفي منتصفهِ ايضاً ، فيها حرية لفظية ومعنوية ظاهرة وفيها اجتهاد في اختيار الحرّ من اللفظ واجتناب المبتذل وفيها طموح الى الجديد لم يكن يألفهُ الكتاب المصريون من قبل . وكثر انتشار المباحث العلمية الحديثة في مصر والشام بفضل المجلات والصحف والكتب وانتدبت حركة احياء الادب العربي في القطرين وقرأ الناس العلم والادب الغربيين

فنشطت عقولهم وقرأوا الادب العربي القديم فاستقامت السنتهم واقلامهم ولم يكد ينتهي القرن الماضي حتى كان الشعر قد خلص من اغلال البديع خلوصاً تاماً وحتى كان الجهاد بين القديم والجديد في النثر قد تطور تطوراً غريباً فاصبح انصار القديم لا يستمسكون بركاكة الجبرتي ولا يحرصون على بديع ابن حجة وانما يستمسكون بقديم بغداد وغيرها من امصار البلاد العربية في العصر العباسي ، ويستمسكون بصحة اللفظ من الوجهة اللغوية وبراءته من العامية والابتذال . واصبح انصار الجديد لا ينفرون من البديع والبيان فقد استراحوا من البديع والبيان ، وانما ينفرون من الاغراق في هذا الادب العربي القديم ويطمحون الى تقليد الادب الغربي الحديث واصطناع الالفاظ الاوربية الاعجمية . واشتد هذا الجهاد بين انصار القديم والجديد في العقد الاول من هذا القرن وكان السوريون بنوع خاص من اشد الناس نصراً للجديد وكان شيوخ مصر هؤلاء الذين توسطوا بين الازهر والمدارس المدنية لانهم تخرجوا من دار العلوم من اشد انصار القديم وكان العلم يزداد انتشاراً والشباب يزداد امعاناً في الاتصال باوروبا والتغذي بما فيها من علم وادب . ثم كانت حركة وطنية في مصر قوية عنيت بها الصحف واندفعت فيها اندفاعاً شديداً وكان الشبان قوة هذه الحركة ، ومن الذي يستطيع ان يأخذ الصحف المندفعة في حركاتها السياسية بملاحظة القديم وانتقاء الالفاظ ؟ ومن الذي يستطيع ان يأخذ الشباب الثائر بان يتقيد بالقاموس او لسان العرب ؟ ولأمر ما تجاوزت هذه الحركة السياسية مصر وكانت الثورة في قسطنطينية واعلن الدستور العثماني وردت الحرية الى الاقطار العربية العثمانية فكان لهذا كله اثر قوي في الادب العربي وفي النثر منهُ بنوع خاص ، وكان هذا كلهُ صدمة عنيفة لانصار القديم من الكتاب والشعراء . ذلك لأن هذه الحركات السياسية نقلت الكتابة من بيئتها القديمة الى بيئات جديدة ما كانت لتكتب لولا هذه الحركات ، فقد كانت الكتابة (كما كان العلم) حظاً مقصوراً على بيئة خاصة من الناس ثم اصبحت الكتابة كما اصبح العلم حظاً شائعاً في الناس جميعاً . ومن الذي يستطيع ان يأخذ الناس جميعاً بالتحرج فيما يكتبون والتقيد بمعاجم اللغة واساليب القدماء . وكانت الحرب العظمى فاشتد الاتصال والمخالطة بين الشرق والغرب وانتهيا الى حدٍّ لم يعرف من قبل ثم انتهت هذه الحرب ونتج عنها ما نتج من هذه الثورة السياسية العامة في الشرق العربي كله وأثر هذا في حياة الناس على اختلاف فروعها فلم يكن بد من ان يؤثر في الادب ايضاً وفي النثر بنوع خاص . الحق ان الحرب وتتائجها وقفت نمو الحركة الادبية في

الشرق العربي وان هذه الثورة السياسية شغلت الناس عن الحياة الادبية والعلمية حيناً وتصرت جهودهم على السياسة ولكن هذه السياسة نفسها قد تركت في النثر العربي اثاراً لن تمحى قبل عصر طويل ، جعلته حاداً عنيفاً واستحدثت فيه فنوناً مختلفة واساليب متباينة من الطعن والخصومة لم يعرفها النثر العربي من قبل . ثم لم تلبث السياسة نفسها ان استحدثت حياة ادبية جديدة في النثر ظهرت منذ حين وآتت ثمراً طيباً ولكنها لم تصل بعد الى غايتها. ومن الحق ان نقول ان مصر قد اختصت بهذه الحركة . ولكل شيء خيره وشره وقد كان للخصومة الحزبية في مصر شرورها وآثامها ولكن لها في الوقت نفسه حسناتها ومنافعها وانما نُعنى منها بالحسنات والمنافع الادبية. واول ما نلاحظ من هذه الحسنات ان الجهاد اشتد بين الاحزاب فاضطرها الى ان تتنافس في اكتساب الجمهور وكانت الصحف اجل الادوات لهذا التنافس خطراً وكان الادب من اهم الاسباب التي اتخذتها الصحف وسيلة الى التنافس . اخذت الصحف تنشر الفصول الادبية تقلد في ذلك صحف اوربا ولكنها تخدع الناس وتستدرجهم الى قراءة ما تكتب في السياسة ، وما هي الا ان اصبحت الكتابة في العلم والادب نظاماً تحرص عليه كل صحيفة تقدر لنفسها كرامة صحفية وتريد ان يحفل بها الجمهور . واصبح الجمهور نفسه لا يقدر الصحف الا اذا قدمت له مع الفصول السياسية فصولاً في العلم والفلسفة والادب والفن . والصحف تتجاوز مصر وتنبث في الاقطار العربية كلها فما اسرع ما تأثر هذه الاقطار بهذه الفصول الادبية . فالادب وحده هو الذي يجمع بين البلاد العربية المختلفة جمعاً حراً بريئاً منتجاً بعد ان فرقت بينها السياسة

ولست اذكر هذه الفنون النثرية الهزلية التي استحدثتها السياسة في الصحف الاسبوعية فلهذه الفنون قيمتها ولكنها ليست من النثر الذي نحن بازائه وهو النثر الادبي الفصيح

هذا النثر الادبي الفصيح ان امتاز الآن بشيء فهو يمتاز بأن الخصومة فيه بين انصار القديم والجديد قد انتهت او كادت تنتهي الى قدر لن يعدوه مختصمون . ذلك ان الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصة كل الحرص على شيئين لا ترضى بدونهما : الاول ان يقدم اليها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقي الاسلوب بريء من الابتذال حر من اغلال البديع والبيان . والثاني ان يكون هذا النثر على كل ما قدمنا ملائماً لذوقها الجديد وميولها الجديدة قيماً في معناه كما هو قيم في لفظه حر في معناه كما هو حر في لفظه ايضاً ، ومعنى هذا ان الكثرة المطلقة من الذين يقرأون العربية الآن تحرص في حياتها كلها على أمرين : تحرص على قديمها لانها لا تريد ان تمحو شخصيتها وتحرص على

الجديد لانها لا تريد ان تكون اقل من العرب علماً ولا أدباً ولا حضارة . وهذا النثر الذي قدمت وصفهُ هو وحدهُ الملائم لهذا الذوق الجديد وهذه الآمال الجديدة . ومع ذلك فللقديم أنصار وللجديد انصار ولكن اولئك وهؤلاء قلة ضئيلة في حقيقة الامر لا يكاد يعبأ بها احد ، اولئك لا يزالون يتمسكون بالصناعة اللفظية و يسرفون فيها اسرافاً شديداً فينصرف عنهم الناس لانهم لا يفهمونهم ولا يجدون عندهم ما يريدون، وهؤلاء يزدرون الالفاظ و يضون شخصيتهم الشرقية العربية في كتّاب الغرب فينصرف عنهم الناس لانهم لا يجدون عندهم هذه الشخصية الشرقية العربية التي يكلفون بها و يناضلون في سبيل تحقيقها واكراه اوربا على ان تعترف لها بالوجود

افلتك تعفيني من ان اتجاوز هذا القدر العام الى التحدث اليك عن شخصيات الكتاب الناثرين في مصر وغير مصر واثار هذه الشخصيات في اساليبهم النثرية فقد اطلت واسرفت في الاطالة ولو ذهبت احدثك عن شخصيات الكتاب واساليبهم لما فرغت الآن وما اشك في ان « المقتطف » حريص على ان افرغ

طه حسين

كنوز البحار وغرائب اقتنائها

٢

مخاطر الغوص ومعدات الغوّاص

لولا الغوّاص لاستحالت اعمال الشل. فقد يضع المهندس ابرع الخطط الهندسية المبنية على احدث المبادئ العلمية ويهيئ لعمله آخر المبتكرات الفنية من آلات وروافع ولكن نجاح عمله مرتبط بمقدرة الغوّاص

كل رجل يستطيع الغوص الى عمق ٣٠ قدماً من غير مشقة كبيرة اذا تمرّن السباحة. وكثيرون يستطيعون الغوص الى عمق ٦٠ قدماً اذا كانوا في حالة صحية ولكن يندر بينهم من يستطيع الغوص الى عمق ١٥٠ قدماً او مائتي قدم لان ضغط الماء على الجسم حينما يكون الغواص على هذا العمق كبير يستدعي قوة غير عادية لتحمله

دع المخاطر التي يتعرض لها الغواص من حيوانات البحر كالاخطبوط وكلاب البحر وغيرها فان الغوص الى اعماق بعيدة القرار عمل شاق واذا لم يكن الغوّاص متين البنية متمرساً بعمله رزح تحت اعبائه. لذلك ينتخب الغوّاصون ممّن يتخذ ابطال الرياضة